

'سيرة صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية' الناطقة بالإنجليزية'

جزيل عبد الجبار الجومرد، ناصر عبد الرزاق الملا جاسم

كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الموصل

ملخص

يُعَدُّ صلاح الدين الأيوبي من الشخصيات المعروفة عند الأوروبيين في العصور الوسطى، وقد قام عدد من الباحثين منهم بدراسة الدور التاريخي لصلاح الدين؛ وبين ذلك دراسة لمجموعة من المؤرخين ممن كتبوا بحوثهم باللغة الإنجليزية.

وفي هذا البحث تناول الباحثان الدراسات المشار إليها في دراسة نقدية لما طرحه بصدد الدور التاريخي لصلاح الدين الأيوبي.

Abstract

Saladin was one of the great Muslim personalities known to the Europeans during the Middle Ages. His historical role and career have been dealt with by considerable European Studies. Among them, several works are written in English. In this paper the two authors try to present a critical study of the mentioned works.

المقدمة :

يعد صلاح الدين واحداً من أبرز الشخصيات الشرقية والإسلامية التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، بل لقد فاقت شهرته فيها ما لأي شخصية إسلامية أخرى ما عدا شخصية الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم). وقد تأتت شهرته هذه بفعل عوامل عدة أبرزها:

١٠ الانتصار الساحق في حطين، الذي أبيد خلاله الجيش الصليبي أو كاد، وتحررت على أثر ذلك الأراضي التي كانت تابعة للمملكة الصليبية، بجانب أغلب مدن إمارتي طرابلس وناطاكيا وقلاعهما.

ب٠ تحرير القدس الشريف في يوم ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ / ٢ تشرين الأول ١١٨٧ م بعد أن مكث نحو ٨٨ عاماً تحت وطأة الاحتلال الأوروبي، وقد أحدث هذا الظفر دويماً هائلاً في العالمين الإسلامي والنصراني على السواء.

ويكفي أن نذكر أن البابا أيربان الثالث قد توفي على أثر سماعه الخبر (١).

ج- تصديه للملوك أوروبا في الحملة الصليبية الثالثة التي قادها أكبر ملوك أوروبا ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس، وإحباطها.

ومع أن صلاح الدين كان خصماً للصليبيين، أذاقهم مرّ الهزيمة مراراً، فقد رأوا فيه خصماً شريفاً ذا مزايا أخلاقية عالية ينذر أن يجدوا نظيراً لها بين ظهرائهم. وهكذا انطلقت ألسنتهم تلهج بفعاله الكريمة وجميل خلقه، وقد قدم لنا المؤرخون الصليبيون من معاصري صلاح الدين صوراً رائعة عن كرمه وسماحته وكريم خصاله (٢). فها هو المؤرخ الصليبي (أرنول)، الذي كان في القدس الشريف أثناء حصار صلاح الدين له عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وتحريره إياه، ويقدم لنا وصفاً حياً للمعاملة الرائعة والسلوك الحضاري والإنساني الرفيع الذي عامل به صلاح الدين أعداءه الصليبيين، الذين أصبحوا يومذاك تحت رحمته، فيصف لنا منظر نساء من قُتل أو أسر من فرسان الصليبيين، وهن يخرجن من القدس بعد تحريرها ناتحات ويتجهن إلى صلاح الدين يسألنه الرحمة، فيرق قلبه الكبير لهن، وهن نساء أعدائه، ويكي لباكتهن ويأمر بإطلاق سراح من كان أسيراً من أزواجهن، ويعوض من فقدت زوجها وأملاكها بالمال الوفير، ويأخذ (أرنول) بهذا الموقف، ويقول إن هؤلاء النسوة قد مضين ينشرن في الأفاق عطف هذا السلطان ونبله (٣).

وسجل لنا صاحب كتاب (رحلة ريتشارد) الذي كان بمعية ريتشارد قلب الأسد في حملته على الشرق، والتي مثلت جانباً من الحملة الصليبية الثالثة بين عامي ٥٨٦ هـ / ١٩٩٠ م - ٥٨٨ هـ / ١١٨٢ م

لقاءً بين صلاح الدين وأسقفاً عن سالزبوري الإنجليزي، ظهر فيه صلاح بمتهى الكرم والتهديب (٤)، ومن فرط إعجاب صاحب هذا الكتاب بفروسية صلاح الدين وسمو أخلاقه أدعى بأن الأخير قد لقن هذه الصفات همفري تورن (تبين)، الذي نصبه فارساً حسب التقاليد الأوروبية (٥).

إلا أن دعاة الحروب ومصالح رجال الكنيسة لم تكن لترضى أن تشيع هذه الصورة عن صلاح الدين، فصوروه للأوروبيين عدواً يقتل الأبرياء ويتهك المقدسات، وذلك لتعبئة البسطاء واقتيادهم للقتال بعيداً وراء البحار، وقد ارتبط اسم صلاح الدين بهذا الشأن، بالضربة التي عرفت باسم (عشور صلاح الدين) (Saladin's Tith) وهي ضريبة كانت تجبى ابتداءً بعهد الملك هنري الثاني لغرض جمع الموال لتمويل الحملات الصليبية (٦). كذلك لم يرتض الإنجليز أن يكون صلاح الدين نداً لملكهم ريتشارد قلب الأسد، وقد تضافرت هذه العوامل وانعكست بوضوح في الصورة التي قدمتها الملحمة الشعرية المعروفة (ريتشارد قلب الأسد) (Richrd Coer de lion) التي ظهرت في بريطانيا في القرن الخامس عشر (٧)، حيث تكشف هذه الملحمة عن تحيز ديني شديد وعداء مرير يترك أثره البارز على الحقيقة التاريخية، بل إن صاحبها يقلب حقائق التاريخ رأساً على عقب فيتجاهل الشخصية الحقيقية لصلاح الدين ولطبيعة العلاقة التي ربطته بريتشارد (٨) إذ يخلق العديد من الحوادث التي لا أساس لها من الصحة من الناحية التاريخية، فهو، مثلاً، يصور نزلاً وقع بين صلاح الدين وريتشارد هوى فيه الأول عن جواده تحت ضربات ريتشارد القوية، وأطلق ساقية للريح لا يلوي على شيء (٩). وكما هو معروف من المصادر التاريخية أن كلا الرجلين لم يلتقيا أبداً لا في ساحة قتال ولا في أي مكان آخر (١٠). وإذا كانت الحقائق التاريخية قد منعت صاحب الملحمة من أن يجعل صلاح الدين في عداد صرعى (فأس) ريتشارد، فإنه استعاض عن ذلك باختلافه لنزال آخر سقط فيه أولاد صلاح الدين هذه المرة صرعى بأيدي ريتشارد (١١). لعل من نافل القول أن نوه بغياب أي صلة لهذه الحادثة بحقائق التاريخ. كما يشوه المؤلف حادثة إهداء صلاح الدين أحد خيوله لريتشارد فيجعل ذلك مكيدة من صلاح الدين لقتل ريتشارد (١٢).

وقد تركت صورة صلاح الدين هذه تأثيراتها في الموقف البريطاني من صلاح الدين لعدة قرون، وبالتحديد حتى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، عندما اضطلع المؤرخ البريطاني إدوارد كيبون (١٧٠٨ - ١٧٩٤) والروائي الاسكتلندي والتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) بالقيام بانعطف حاسم في تقديم شخصية صلاح الدين للقارئ البريطاني.

أما كيبون فقد قدم لنا في كتابه الذائع الصيت ^{١٠} اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها صورة رائعة عن صلاح الدين لا عهد للإنجليز لها، ويمكن أن نصف هذه الصورة بأنها عبارة عن ترديد لما

قدمه ابن رشد في القسم الأول من كتاب (النوادر السلطانية) (١٣). والذي هو وصف أخاذ لما كان عليه صلاح الدين من تقوى وأخلاق وصفات منقطعة النظير. وقد نقل لنا كيون هذه الصورة بكل أمانة، فيقول واصفاً صلاح الدين بأنه كان:

'متواضعاً لا يعرف البذخ أو الترف ولا يرتدي سوى عباة المصنوعة من الصوف الخشن، ولم يكن يعرف سوى الماء شرباً... وكان متديناً قولاً وفعلًا يشعر بالأسى لعدم تمكنه من أداء فريضة الحج لأنه كان منشغلاً في الدفاع عن دين الإسلام وكان يحافظ على تأدية الصلوات الخمس في أوقاتها فيقف خاشعاً بين أيدي أصحابه، وإذا ما أفطر فإنه كان يؤدي الزكاة بسخاء بالغ ومن شدة ورعه وتقواه أنه كان يقرأ القرآن، وهو على صهوة جواده أثناء المعارك ووسط الجيوش المتهيئة للقتال' (١٤).

أما سكوت فكان أول أديب بريطاني يضع شخصية صلاح الدين بموازاة خصمه الملك ريتشارد، وذلك في روايته المعروفة بـ (الطلسم The Talisman) التي تعد أول عمل أدبي إنجليزي فيه إنصاف للعرب والمسلمين (١٥). ويظهر صلاح الدين في هذه الرواية رجلاً ذا صفات خلقية عالية بشهادة شخوصها، وبخاصة الملك ريتشارد الذي رأى صلاح الدين رجلاً شجاعاً كريماً يحفظ عهده (١٦)، ولا يحث بكلمة يعطيها قط (١٧). وتنعكس ثقة ريتشارد بنوايا صلاح الدين الطيبة كما يصورها سكوت، في موافقته على الالتقاء بصلاح الدين بعيداً عن المعسكر الصليبي (واحة درة الصحراء). ويخاطبه أثناء اللقاء بقوله 'إنك والشك لا تجتمعان على أرض واحدة' (١٨). وتظهر شخصية صلاح الدين في الرواية بصور ثلاث: الحكيم الذي يدخل المعسكر الصليبي لينقذ خصمه ريتشارد من مرض مميت (١٩)، والفارس العربي الشجاع، ويظهر أخيراً بهيئته كسلطان، وهنا يصفه سكوت بأنه 'رجل كتبت الطبيعة على جبينه هذا ملك' (٢٠). ويظهر لنا صلاح الدين في لقائه بريتشارد ندأً تماماً لخصمه في الشجاعة والفروسية والهيبة الملكية (٢١).

وقد حققت هذه الرواية شهرة كبيرة لدى القارئ الإنجليزي فعملت على تغيير وجهة نظره إلى صلاح الدين، فبعد أم كان اسمه موحياً بالعداء والكفر والضلال أصبح مرادفاً الآن للشجاعة والصدق والشهامة (٢٢).

ثم جاءت بقية القرن التاسع عشر بتطورات هامة تركت تأثيراً بالغاً في الصورة الأوروبية عن الشرق والإسلام والعرب. إذ شهدت هذه المرحلة اتساع الأطماع الأوروبية الاستعمارية بالأراضي العربية، وبالتالي تنامي دور المستشرقين، وزاد اهتمامهم بالتاريخ الإسلامي، وكان من مظاهر هذا الاهتمام نشر المصادر العربية الأولية، مما أعطى صوراً أكثر واقعية للتاريخ الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، وعلى قدر تعلق الأمر بصلاح الدين، فإن نشر المصادر الأولية المتعلقة بسيرته قد قاد إلى تعزيز الصورة الإيجابية في الغرب عنه.

سيرة المستشرق ستانلي ادوارد لين بول:

دخل الاهتمام بشخصية صلاح الدين في بريطانيا مرحلة جديدة مع نهاية القرن الماضي عندما أصدر البريطاني ستانلي ادوارد لين بول أول سيرة بالإنجليزية عن صلاح الدين عام ١٨٩٨ (٢٣).

ويتسب لين بول (١٨٥٤ - ١٩٣١) إلى عائلة اختصت بحقلي التاريخ والاستشراق، وكان أبرز أفراد أسرته المستشرق الشهير ادوارد وليم لين صاحب المعجم العربي الإنجليزي وترجمة ألف ليلة وليلة، بجانب كتابه عن 'عادات المصريين المحدثين وطبائعهم' (٢٤).

وقد تولى (لين) تربية لين بول وأخيه المؤرخ ريجنالد لين بول (٢٥) وترك في نفس لين بول تأثيراً واضحاً ستحدث عنه لاحقاً.

وتخصص لين بول بدراسة النقود الإسلامية الشرقية بحكم عمله كأمين لقسم النقود الشرقية في المتحف البريطاني. ونشر عن النقود عدة مؤلفات (٢٦)، ثم أعقب ذلك بنشر كتب تناولت جوانب متعددة من التاريخ الإسلامي ككتبه: 'العرب في أسبانيا'، 'تركيا' و 'الأسر الإسلامية الحاكمة' وغيرها (٢٧). أما اهتمامه بتاريخ صلاح الدين فارتبط كما يبدو بعنصرين هامين:

الأول: هو الارتباط الإنجليزي التقليدي بصلاح الدين بحكم صلته بمليكهيم ريتشارد قلب الأسد. وقد نما هذا الاهتمام لدى لين بفعل صلته الوثيقة بعدد من المختصين بتاريخ الحروب الصليبية وخصوصاً صديقه المؤرخ ١. ارجر T.A.Archer الذي كان كتابه عن الحملة الصليبية الثالثة مصدر لين بول الرئيس في تناوله لأحداث هذه المرحلة، وقد أقر لين بول بمعونة ت. ارجر في إنجاز كتابه (٢٨).

الثاني: اهتمام لين بول بمصر، وهو اهتمام ورثه عن قريبه المستشرق إدوارد لين، الذي يعد من أكثر الشخصيات تأثيراً في نفس لين بول. ويتضح ذلك لا في دأبه لإكمال ما بدأه سلفه من أعمال أو في اضطلاعه بكتابه (سيرة حياته) فحسب (٢٩)، بل في ذلك الأسلوب المقعم بالعاطفة الذي صور فيه حياة هذا المستشرق الشهير (٣٠).

وبالفعل فقد ورث لين بول عن إدوارد لين حبه للشرق وللمصر على وجه التحديد، ولو رجعنا إلى قائمة مؤلفات لين بول وحدها لوجدنا أن مصر قد احتلت الصدارة فيها (٣١). ولم تقتصر صلة لين بول بمصر على مؤلفاته عنها، إنما كذلك امتدت إلى زيارته المتعددة لها، واضطلاعه فيها بمهام ترتبط بنشاطه كمستشرق، فقد قام عام ١٨٨٣ ببعض المهام التقريبية فيها (٣٢). في حين تولى بين عامي ١٨٩٥ - ١٨٩٧ الإشراف على عمل (لجنة الآثار العربية) التي كانت مهمتها صيانة وترميم الآثار الإسلامية في مدينة القاهرة (٣٣).

وفي ظل هذين المؤثرين كتب لين بول سيرته عن صلاح الدين، وقد وجد أن سيرة صلاح الدين يمكن أن تقسم إلى ثلاث مراحل: المرحلة المصرية، تبدأ من اشتراك صلاح الدين بالحملة الأولى على مصر عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م وتنتهي بوفاة نور الدين عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م، والمحلة الشامية وتبدأ من نهاية المرحلة الأولى وتنتهي بإقرار الصلح بين صلاح الدين والموصلية، واستعدادات صلاح الدين للشروع بجهاد الصليبيين مع بداية عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، والمرحلة الثالثة وهي المرحلة الفلسطينية وتبدأ مع معركة حطين في ربيع الثاني / تموز ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وتنتهي بوفاة صلاح الدين في ٥٨٩هـ / آذار ١١٩٣م (٣٤).

وقد أفرد لين بول للفترة المصرية الجزء الثاني من كتابه وجعل عنوانه (مصر) وضم أربعة فصول كانت نحو خمس المادة التي خصصها لين بول لسيرة صلاح الدين ككل (٣٥) والملاحظات التي يمكن أن تؤثر بصدد تناول بول لسيرة صلاح الدين في هذه المرحلة هي:

١- استند لين بول في هذه المرحلة بالدرجة الأساس إلى ابن الأثير ويلييه ابن شداد، وقد تقبل تفسيرات الأول التي حملت نوعاً من النيل من صلاح الدين، كتفسيره لتولي صلاح الدين الوزارة لصغر سنه وإمكانية خضوعه للخليفة الفاطمي العاضد (٣٦)، وكذلك تبنيه لتفسير ابن الأثير لحملة صلاح الدين على جنوب مصر وبلاد اليمن بأنها كانت بحثاً عن ملجأ يأوي إليه صلاح الدين وعائلته فيما لو هاجم نور الدين مصر (٣٧). كما كرر ما قاله ابن الأثير عن الوحشة (الزعومة) بين صلاح الدين ونور الدين (٣٨). وقدم اقتباساً مطولاً للمؤتمر الذي قبل إن العائلة الأيوبية قد عقدته لتدارس مخاطر إمكانية مداومة نور الدين لصلاح الدين وأهله في مصر (٣٩)، في حين استوحى لين بول من ابن شداد صورة لصلاح الدين في شبابه فرأه شاباً ورعاً هادي الطباع لين العريكة، قليل الطموح، ويؤثر العزلة وينأى عن سبل المجد والشهرة، وقد تعرضت هذه الصورة لنقد شديد كما سنرى ذلك لاحقاً، في حين لا يقدم ابن شداد إلا القليل للين بول من المادة التاريخية عن أحداث هذه المرحلة.

ب- اهتم لين بول كثيراً بإيراد بعض التفاصيل التي لا علاقة مباشرة لها بسيرة صلاح الدين، إذ نجد أن معرفته الغنية بمصر وآثارها قد دفعت به إلى الإسهاب في استعراض خطط القاهرة الفاطمية وحدائقها (٤٠)، والحديث عن القلعة التي شرع صلاح الدين بإقامتها على جبل المقطم (٤١)، إلى غير ذلك من التفاصيل البعيدة عن سيرة صلاح الدين. ونلاحظ أن لين بول قد استقى أغلب مادته من مؤلفات سابقة له. ويعود بعد تأليفه لهذا الكتاب إلى تكرار ما قدمه من معلومات بهذا الخصوص في كتبه التالية (٤٢). وتلك ظاهرة وجهتها سهام النقد باعتراف لين بول نفسه (٤٣).

وخصص لين بول أربعة فصول أخرى للحديث عن المرحلة الثانية من سيرة صلاح الدين، وجعلها ضمن القسم الثالث من كتابه، وهو القسم المعنون بـ (الإمبراطورية) وتسترعي انتباهنا في معالجة لين بول لهذه المرحلة الملاحظات التالية:

أ- الاختصار الشديد والمجلة التي استعرض فيها لين بول أحداث هذه المرحلة، فمع أنها أطول مراحل سيرة صلاح الدين (١٤ عاماً)، فهي لم تخص بأكثر من خمس الحيز الذي أفرده لسيرة صلاح الدين في كتابه (٤٤). وقفز في عرضه لها فوق كثير من أحداثها.

ب- بقي ابن الأثير مصدر لين بول الأثير، وإن أبدى قدراً من التملل أو التجاهل لروايته لا سيما إذا تيسرت رواية بديلة عن ابن شداد، مصدره الثاني. ومن الأمثلة على ذلك نقده لرأي ابن الأثير الذي فسر زحف صلاح الدين إلى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م بأنه ناجم عن رغبته بالاستيلاء على أملاك الأخير (٤٥). ورجح عليه تفسير ابن شداد الذي أكد أن وضع الشام الحرج ومصلحة الإسلام والمسلمين هي التي دفعت صلاح الدين للتدخل، وعد رأي ابن الأثير سوء فهم لشخصية صلاح الدين (٤٦). ويفضل كذلك رواية ابن شداد عن ضراوة معركتي قرون حماة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م وتل السلطان ٥٧١/ ١١٧٦، على رواية ابن الأثير المناقضة لها (٤٧). ولكي تبقى أيضاً تلك الروايات التي طعن فيها ابن الأثير بقسوة صلاح الدين ولم يذكرها سواء، والتي وقف حيالها لين بول موقفاً متنبذاً. والرواية النموذجية في هذا الشأن الرواية المتعلقة بالمؤامرة التي ادعى ابن الأثير بأن ناصر بن شيركوه قد دبرها للإطاحة بحكم صلاح الدين أثناء مرضه عام ٥٨١هـ/ ١١٨٦م.

ولو تأملنا رواية ابن الأثير المذكورة سنجد أن عناصرها الرئيسية هي:

- أ- رحيل ناصر الدين من معسكر صلاح الدين في حران أثناء مرض الأخير قاصداً حمص.
- ب- التقاء ناصر الدين في حلب بأحداث المدينة وتوزيعه المال عليهم.
- ج - اتجاه ناصر الدين إلى حمص ومراسلته لجماعة من الدمشقيين واتفاقه معهم على تسلمه البلد (دمشق) حال وفاة صلاح الدين.
- د- وفاة ناصر الدين بصورة مفاجئة في عيد الأضحى.
- هـ- اتهام صلاح الدين بإرسال من دس له سماً.
- و- حضور صلاح الدين إلى حمص واستعراضه لفرقة ناصر الدين، واستيلائه على أكثرها ولم يترك إلا ما ليس فيه خير.

ز- التقاء صلاح الدين بعد عام من ذلك التاريخ بابن ناصر الدين (عمره آنذاك ١٣ عاماً) وفي سؤاله من قبل صلاح الدين عن الموضوع الذي بلغه في حفظ القرآن أجابه بالآية الكريمة (إن الذين يأكلون أموال اليتامى .. إلى آخر الآية) (٤٨).

أما لين بول فيذكر أغلب عناصر الرواية فقط الاتهام المباشر لصلاح الدين ما عدا عنصراً واحداً هو العنصر (هـ) الذي رآه لين بول أمراً بعيد الاحتمال. في حين أبقى على العناصر الأخرى. أما اتهام صلاح الدين بالاستيلاء على الأموال فلم ينفه لين بول بل برره بأن أخذها كان لإنفاقها في شؤون الدولة. وأبقى كذلك على لقاء صلاح الدين بابن شيركوه كما ذكره ابن الأثير دون أن يسقط شيئاً منه (٤٩).

أهمّل لين بول الاستعانة بكتاب 'الروضتين' في أغلب جوانب كتابه بما أوقعه في بعض الأخطاء، ومن الأمثلة على ذلك:

وقوعه أسيراً لرواية ابن الأثير عن المفاوضات بين صلاح الدين والزنكيين قبيل معركة قرون حماة ٥٧٤هـ/ ١١٧٤م مما جعل عرضه للرواية مبتوراً (٥٠)، ونحن نستشف من الروايات الأخرى ولا سيما روايتي عماد الدين وابن أبي طي ميعول صلاح الدين لإقرار الصلح، وموافقة الزنكيين على الصلح، ثم تراجعهم عن اتفاقهم معه، وفرضهم شروطاً تعجيزية عليه مما أدى إلى فشل المفاوضات (٥١). كذلك ضاعت على لين بول بسبب إهماله استخدام (الروضتين) الفرصة للتعرف إلى ظروف اكتشاف صلاح الدين للاتفاق السري بين زنكي الموصل وحلب لمحاربة صلاح الدين، مما قاد إلى معركة تل السلطان ٥٧١هـ/ ١١٧٥م وهو أمر أغفله ابن الأثير وابن شداد (٥٢).

وعلى العكس من عجالة لين بول وتسرعه في معالجة المرحلتين الأولى والثانية من سيرة صلاح الدين، يتوقف ليقدم عرضاً مسهباً لأحداث المرحلة الثالثة، أي مرحلة الجهاد، حيث يفرد لها نحو نصف القسم المخصص لسيرة صلاح الدين في كتابه. وقد احتلت هذه المرحلة جزئين من أجزاء كتابه الخمسة هي (الجهاد ١١٨٧ - ١١٩١) و (ريشارد وصلاح الدين ١١٩١ - ١١٩٣)، وجاءت في تسعة فصول (٥٣). ومن الملاحظات التي تسجل على لين بول في هذه المرحلة:

١- إيمانه التام بحقيقة نوايا صلاح الدين الجهادية، وأن كل جهوده في المراحل السابقة كانت تمهيداً وتهيئة للانطلاق صوب الجهاد الشامل ضد الصليبيين في هذه المرحلة (٥٤). ورويته مبنية على ما ذكره ابن شداد الذي تحول ليصبح مصدره الرئيسي في تدوينه أغلب جوانب هذه المرحلة، بل يصبح أحياناً مصدره الوحيد كما في حديثه عن حصار الصليبيين لعكا بين عامي ٥٨٥هـ/ ١١٨٩ - ٥٨٧هـ/ ١١٩١م (٥٥). وكذلك في حديثه عن جولات المفاوضات بين صلاح الدين وريشارد، وقد

عده لين بول الشاهد الأصيل والوحيد عليها (٥٦). ويعود ذلك إلى أن ابن شداد قد تحول في هذه المرحلة إلى مصدر غاية في الأهمية، لأنه قد أصبح يعتمد في ذكره للحوادث على شهادته الشخصية بسبب التحاقه في عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م بصلاح الدين قاضياً لعسكره (٥٧).

ب_ كذلك بدأت مؤثرات مؤرخي الحروب الصليبية تهيمن على عملية معالجة لين بول، سواء من حيث منحه للمصادر الصليبية قدراً أكبر من اهتمامه، أو في أسلوب عرضه لمادة هذه المرحلة حيث أخذت المصادر الأوروبية تتمتع بحيز كبير من عناية لين بول، وأخذت اقتباساته عنها تمتد فتحتل عدة صفحات (٥٨). وأبرز مصادره الأوروبية كتاب (رحلة ريتشارد) الذي كان صديقه ت. ارجر قد ترجم مقتطفات منه في كتابه عن 'الحملة الصليبية الثالثة' (٥٩).

ج- إلا أن الجمع بين الاقتباسات المطولة عن ابن شداد وصاحب الرحلة أوقع لين بول في بعض الأخطاء ولا سيما في تقديمه لروايات متناقضة للحادثة الواحدة، كإيراده لنصين عن معركة أرسوف / الأول عن صاحب الرحلة ذكر فيه مقتل ٣٢ أميراً من أمراء صلاح الدين (٦٠)، والثاني عن ابن شداد الذي لا يتحدث عن مقتل أي أمراء صلاح الدين (٦١).

لين بول وشخصية صلاح الدين

وبعد استعراضنا لطبيعة لين بول في سيرة صلاح الدين، لا بد لنا أن نعود فتأمل الصورة التي قدمها عن شخصيته، ونجد أنه قد آمن بما قدمه كيون وسكوت من عناصر عن شخصية صلاح الدين وهي صفات البطولة والفروسية والخلق الرفيع، ولكنه أضاف إليها عنصراً جديداً وهو ورع صلاح الدين وتقواه. ونستطيع أن نستشف تأثيرات ابن شداد الواضحة هنا جلية، ولا سيما في فصله قبل الأخير الذي هو بمثابة ترجمة لفقرات مطولة من القسم الأول من كتاب ابن شداد الذي تحدث عن تدين وأخلاق وشجاعة صلاح الدين (٦٢).

وقد تركت سيرة لين بول أثراً بارزاً في الكتابة التاريخية الأوروبية عن صلاح الدين، ويكفي أن نشير إلى تصدر كتابه أي قائمة للمصادر عن حياة صلاح الدين في طبعات دائرة المعارف البريطانية المختلفة منذ صدور كتابه حتى نحو منتصف القرن العشرين.

سيرة هاملتون الكسندر روسكين كب

وبقي لين بول مهيمناً على الفهم الإنجليزي لسيرة صلاح الدين حتى منتصف القرن العشرين عندما تصدى مستشرق بارز لهذا الموضوع ألا وهو المستشرق البريطاني هاملتون أ. ر. كب الذي كان آنذاك

أستاذ التاريخ الإسلامي في أكسفورد، ثم انتقل عام ١٩٥٥ إلى جامعة هارفرد في الولايات المتحدة ليدرس فيها (٦٣). وقد بدأ كب بنشر دراساته عن صلاح الدين عام ١٩٥٠ في بحثه الموسوم 'المصادر العربية عن سيرة صلاح الدين' (٦٤)، وتبعته سلسلة من البحوث التي تعالج جوانب مختلفة من إنجازات صلاح الدين وشخصيته، ثم نشر عام ١٩٥٨ قسماً من سيرة صلاح الدين توقف فيه حتى قيام الحملة الصليبية الثالثة، ثم صدرت له بعد وفاته عام ١٩٧١ دراسة كاملة لسيرة صلاح الدين (٦٥).

ويرجع ارتباط (كب) بشخصية صلاح الدين إلى بعض العوامل منها ما خلفه كتاب (الطلمس) في نفسه وهو طفل، لا سيما إذا عرفنا أنه قد تلقى تعليمه الأول في المدرسة الملكية العليا في أذربه التي كان سكوت في الماضي أبرز طلابها (٦٦).

فقد أثارت رواياته خيال (كب) الطفل وخلقت بينه وبين صلاح الدين والشرق وشائج تحدث طويلاً عنها لطلابه، ورأى في الكتاب عملاً رائعاً يمكن من خلاله التعرف إلى التاريخ الإسلامي (٦٧). كذلك كانت طبيعة (كب) المتقشفة، كما يرى البرت جوراني ولیم بولك، وقد دفعته للابتعاد عن الشخصيات ذات الطابع الدنيوي. ووجد ضالته في صلاح الدين الذي عده نموذجاً للحكم العادل المستقيم الذي وضع حداً للانحطاط السياسي، والذي كان يسعى ليعيد وحدة الأمة الإسلامية تحت حكم الشريعة (٦٨). وفي ضوء هذه الرؤية اتخذ (كب) موقفاً في صف صلاح الدين ضد خصومه من المسلمين، مما سيتيح لنا فهم إيمانه بوجهات نظر صلاح الدين وكتاب سيرته كابن شداد وعماد الأصفهاني ونقده القاسي لمواقف خصومه من حكام الزنكيين في الموصل ولؤرخهم عز الدين بن الأثير.

كب ومصادر سيرة صلاح الدين

من بين المواضيع الأساسية التي اهتم بها هاملتون كب موضوع المصادر العربية عن سيرة صلاح الدين، وقد توصل على أثر دراسات تحليلية دقيقة إلى الخلاصات التالية:

أ- أيد كب ما ذكره لين بول عن موثوقية ابن شداد، وأعاد التأكيد على أهميته مصدراً لا غنى عنه لدراسة السنوات الأخيرة من سيرة صلاح الدين (٦٩).

ب- كان كب أول من نبه إلى أهمية روايات عماد الدين الأصفهاني كمصدر أساس لدراسة سيرة صلاح الدين، وأكد أن أسلوبه الأدبي الذي جعل لين بول يظنه كتاباً أدبياً لم يترك تأثيراً فعلياً سلبياً على الحقيقة التاريخية لديه (٧٠).

ج- كذلك انتقد كب ابن الأثير بقسوة وأكبر عليه أن يعد مصدراً أولاً لدراسة سيرة صلاح الدين. وقد قاده إلى هذا الحكم التحليل النقدي لمادته عن صلاح الدين، إذ أثبت أنها ليست أكثر من نسخ محوّر ومحوّر عن روايات عماد الدين الأصفهاني في كتاب (البرق الشامي). وقد حدد (كب) الأساليب التي اتبعها ابن الأثير في تحوير روايات الأصفهاني (٧١).

ونتيجة لمواقفه السابقة نجده يضع للسيرة التي كتبها عن صلاح الدين عنوان (حياة صلاح الدين من خلال أعمال عماد الدين وبهاء الدين). ويذكر في مقدمتها أن هدفه تقديم رواية هذين المصدرين عن حياة صلاح الدين كرواية مضادة لرواية ابن الأثير التي تتخذ خطأ معارضاً لهما (٧٢). لذلك نجد أن أغلب اقتباساته عن ابن الأثير تأتي لنقد رواياته. ويتوقف كب عن النقل عن ابن الأثير عندما تخفت روح عداء الأخير لصلاح الدين بعد عام ٥٧٣هـ/١١٨٧م.

وقد تركت دراسة (كب) النقدية هذه أثراً كبيراً في عملية تقويم المصادر العربية المتعلقة بالحروب الصليبية وبحياة صلاح الدين خاصة، كما خضت معالجاته والمنهج الذي ابتكره لنقد المصادر طريقاً سلكه عدد من الباحثين بعده (٧٣)، ولكن مع أن من جاء بعد كب قد سلم مرغماً، إذا جاز لنا القول بأحكامه بشأن ابن الأثير، فإنهم قد وجدوا ابن الأثير مع ذلك مؤرخاً على قدر كبير من الأهمية، وقد أوضح المستشرق الإيطالي كابريلي هذه المسألة بقوله : إن دراسة (كب) التي أظهرت ابن الأثير كاتب حوليات سيء قد أبرزت في الوقت نفسه قيمته مؤرخاً حقيقياً من حيث تطلعه للتحليل والتفسير بصورة تعكس ميوله الشخصية (٧٤).

كب وشخصية صلاح الدين

وكان الجانب الهام الآخر الذي عني به (كب) هو شخصية صلاح الدين التي أفرد لها بحثاً من أهم بحوثه هو 'مأني صلاح الدين' (٧٥). ويتفحص (كب) في هذا البحث الأسس التي وجد هو أن صلاح الدين قد اعتمدها في بناء دولته، وفي تحرير الأراضي المقدسة والتصدي للصليبيين. ويتوصل إلى خلاصة مفادها أن نجاح صلاح الدين لم يتحقق بفعل امتلاكه لصفات عسكرية أو إدارية بارزة، بل لما حمله من صفات أخلاقية رفيعة (٧٦)، استطاع أن ينجح بفضلها في كسب الناس الذين ظلوا منضوين تحت لوائه حتى في أقسى الظروف، ويدلل على ذلك ببقاء قوات أمرائه الإقطاعيين لثلاث سنوات معه أثناء حصار عكا والحملة الصليبية الثالثة (٧٧). ويرى (كب) أن جهاد صلاح الدين للصليبيين لم يكن إلا مظهرأً وأحدأً، أو ساحة من السوح التي ناضل فيها من أجل تحقيق مثله العليا، فهدفه الأسمى كان أن ينقذ العالم الإسلامي من التمزق والانحطاط السياسي عن طريق إعادة سيطرة

الشرعية المتمثلة بالخلافة العباسية إلى سابق عهدها، أي أن يعيد من جديد سلطتها إلى تلك الدويلات التي استقلت عنها (٧٨). ويرى (كب) أن صلاح الدين قد نجح فعلاً في إنقاذ الإسلام في فترة حاسمة من تاريخه من الانحطاط الأخلاقي السياسي، وأن طيبته وكرمه ووفاءه بالعهد هو الذي كان سر نجاحه في تحقيق ذلك. (٧٩).

سيرة أندرو ستيفن اهرنكروتز

لكن وجهات نظر (كب) هذه لم تكن بمنأى عن النقد الذي تصاعد مع الوقت، ليظهر بأقصى صورة متجسداً في الدراسة التي قدمها مستشرق أمريكي هو أندرو ستيفن اهرنكروتز. واهرنكروتز هذا مستشرق يهودي من أصل بولندي، نال درجة الدكتوراه من جامعة لندن في مقبل الخمسينات ثم اتجه للتدريس في جامعة ميشكان. وبقي فيها حتى الوقت الحاضر (٨٠).

ومن متابعة مؤلفات اهرنكروتز يتبدى لنا اهتمامه بدراسة التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ملقياً بثقله على دراسة النقود والسكة في نصر الفاطمية والأيوبي والمملوكية (٨١). وهذا ما يفسر اتجاهه للكتابة في سيرة صلاح الدين، وكثيراً من منطلقاته في معالجة هذه السيرة، كما سيتضح ذلك لاحقاً. وتقف الرؤية التي قدمها اهرنكروتز لصلاح الدين وسيرته في موقف انشقاقي بعيد تماماً عن الموروث الإنجليزي التقليدي الذي سبق استعراضه. ويمكن أن نجمل مواقف اهرنكروتز من صلاح الدين بالنقاط التالية:

اهرنكروتز ومصادر سيرة صلاح الدين:

عمد اهرنكروتز إلى الإتيان برؤية مناقضة تماماً لمن سبق من كتاب سيرة صلاح الدين بشأن المصادر الأساسية للسيرة، ففي الوقت الذي عد فيه لين بول وكب كتابات ابن شداد وعماد الدين مصادر في غاية الأهمية بحكم قرب مؤلفيها من الأحداث التاريخية، وأما بشدة بموثوقيتهما، وجد اهرنكروتز في هذا القرب منطلقاً لهجومه عليهما، إذ عدّهما أشخاصاً متملقين انتهازين (٨٢). لعواطفهما وانفعالاتهما العنان على حساب الحقائق التاريخية عند تدوينهما لأحداث سيرة صلاح الدين (٨٣). ويذكر اهرنكروتز أيضاً أن ابن شداد وعماد الدين قد زورا التاريخ تمهيداً لصلاح الدين؛ لكي يصنعا منه نموذجاً لإلهام من جاء بعده من حكام المسلمين، حيث تغاضوا عن سلباته وأسبغوا عليه صفات إسلامية رفيعة، واعتقد اهرنكروتز أنها لم تكن فيه (٨٤). ويزعم أن ابن شداد قد اختلق في القسم الأول من كتابه حوادث تاريخية لا أساس لها من الصحة للتدليل على امتلاك صلاح الدين لخصائص ومزايا إسلامية عالية (٨٥). ونوه هنا إلى أن لين بول قد نقل فقرات مطولة من هذا القسم، مؤمناً تماماً بكل ما ذكره ابن شداد (٨٦).

وقد أصبح المستشرقون نتيجة ذلك أمام رؤيتين متناقضتين، كان عليهم أن يقارنوا بينهما. ولم تكن المقارنة بطبيعة الحال لصالح اهرنكروتز، إذ رجح أغلب من استعرض كتابه رؤية كب ولين بول عليه، فقد أكدوا ضعف منهجه في التعامل، قياساً بأحكام وخلاصات كب الدقيقة والتماسكة في هذا الشأن (٨٧).

ومن جانب آخر تجاهل اهرنكروتز مواقف كب من ابن الأثير، وحاول أن يبحث من جديد الاهتمام برواياته التي وجد فيها ضالته للنيل من صلاح الدين، لأن ابن الأثير قد صورته رجلاً طموحاً لم يرع حق البيت الزنكي، بجانب استخدامه للخداع والمناورة لتحقيق أهدافه، لكنه يتوقف عن النقل عن ابن الأثير عندما يتحول الأخير إلى صف صلاح الدين بعد اتجاهه نحو جهاد الصليبي بعد عام ٥٨٤هـ / ١١٨٧م (٨٨).

وانعكس موقف اهرنكروتز من مصادر سيرة صلاح الدين بوضوح في عملية توظيفه لهذه المصادر في بناء السيرة، ويقودنا التحليل الدقيق لنصوصه إلى القول إن استخدامه لكتابات ابن شداد وعماد الدين استخدام انتقائي، فهو أهمل القسم الأكبر من رواياتهما مكتفياً باستخدام روايات مفردة تهدف إلى تعزيز آرائه المسبقة عن صلاح الدين، وحتى هذه الروايات المتقاة، يأبى أن يتعامل معها بصورة صحيحة إذ ينشر بعض أجزاءها مبقياً من النص ما يدعم وجهة نظره، ويحذف ما سواه (٨٩)، وهو يتعسف أحياناً عديدة في توظيف النصوص إلى الحد الذي وصفه أحد المستشرقين بأنه 'يتبضع النصوص' (٩٠)، كذلك يحور متعمداً في ترجمتها للإنجليزية ليعطي معنى مغايراً لما في الأصل العربي (٩١).

اهرنكروتز وشخصية صلاح الدين

خالف اهرنكروتز، بل ناقض تماماً كل الموروث الإنجليزي التقليدي عن شخصية صلاح الدين، فكما سبق أن رأينا، كانت الرؤية التي رسمها كيبون وسكوت وقبلهما ارنول وصاحب كتاب (رحلة ريتشارد) تؤكد فروسية صلاح الدين وشهامته وكرم أخلاقه، ثم جاء لين بول وكب ليعمقا من هذه الصفات، ويبرزوا صفة صلاح الدين كمسلم ورجل شديد الإيمان بالله والإنابة إليه. أما اهرنكروتز فقد بذل كل ما أوتي من طاقة لدحض هذا التقليد وإنكاره، حتى بدا كأن هدفه في كتابة سيرته تشويه صورة صلاح الدين ليس إلا (٩٢).

وقد استهل عمله هذا بمهاجمة الصورة التي قدمها لين بول وكب لصلاح الدين في شبابه وعدها 'فرضيات سخيفة تستند إلى المخيلة أكثر منها إلى الدليل التاريخي' (٩٣)، فخلف وراءه كل ما

ذكرته المصادر عن النموذج الأخلاقي الذي قدمه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ونور الدين لصلاح الدين الشاب، في حين بالغ في تحوير النصوص لإبراز ما أسماه بـ 'الطموحات السياسية لأسرة صلاح الدين' (٩٤) بهدف خلق عناصر أخرى، غير التي تحدثت عنها المصادر وتبناها لين بول وكب، أسهمت في تكوين الرؤية المسبقة التي حملها عن صلاح الدين، وقد برهن ريتشاردز في بحثه الدقيق عن (تاريخ صلاح الدين المبكر) على فشل جهود اهرنكروتز في تحقيق غايته هذه وأكد بأن ما قدمه لا يعدو أن يكون افتراضات غير مسوغة، تتعامل بأسلوب غير علمي أو سوي مع النصوص التاريخية (٩٥).

ثم يضي (اهرنكروتز) إلى معالجة سيرة صلاح الدين متسلحاً بفكرة مسبقة حاول فرضها بكل وسيلة ممكنة، هي قوله بأن 'سلوك صلاح الدين السياسي لا يختلف روحاً ومنهجاً عن سلوك أي من القادة العسكريين في العصور الوسطى' (٩٦).

ويهدف من مقولته هذه إلى إسقاط العنصر الأخلاقي من شخصيته، وهو العنصر الذي أشرنا إلى أن (كب) قد عده أساس انتصارات صلاح الدين العسكرية كلها.

ويصل (اهرنكروتز) في نهاية كتابه إلى خلاصة غريبة عن الفهم الإنجليزي لشخصية صلاح الدين فيذكر:

'إن صلاح الدين لم يحقق انتصاراته إلا بفعل خبراته العسكرية والإدارية، وإلى استخدامه العقاب الذي لا يرحم، بل والإبادة لخصومه السياسيين أو الخارجين عليه، وكذلك انتهازته المحسوبة وإلى عدم تورعه عن تسخير المبادئ والمثل الدينية لخدمة أطماعه السياسية' (٩٧).

وفي الحقيقة أن خلاصة (اهرنكروتز) هذه لا تعدوا أن تكون أكثر من اتهامات باطلة وتجنّيات تكشف عن حقد ولؤم بعيد غاية البعد عن المنهج والخلق العلمي الذي يفترض أن يتحلّى به كمؤرخ. ونستطيع القول إن محاولات (اهرنكروتز) لتدعيم مقولته هذه أو حتى لمنحها أي مصداقية ممكنة قد اعتورها الفشل. ويكفيها هنا أن نذكر مثلاً واحداً للتدليل على ذلك.

فعند حديث اهرنكروتز عن مرحلة جهاد صلاح الدين للصليبيين، نجده يتجاهل كافة المواقف الأخلاقية النبيلة التي سجلها كُتّاب سيرة صلاح الدين بل حتى المؤرخون الأوروبيون، ملقياً كل اهتمامه على حادثة إعدام صلاح الدين رينو (ارناط) صاحب الكرك بعد الانتصار في حطين، وهو يستخدم لغة حافلة بالعبارات الدرامية والانفعالية المفرضة في تصويره لها (٩٨)، متناسياً أن هذا الأخير قد انتهك المهود والمواثيق أكثر من مرة، وتجرأ على القيام بمحاولة للاعتداء على قبر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) (٩٩).

ويجد (اهرنكروتز) ضالته في رواية ابن الأثير حول وفاة ناصر الدين بن شيركوه ليؤكد على اتجاه صلاح الدين لممارسة الاغتيال السياسي كبقية أمراء عصره (١٠٠)، بل إن حقه على صلاح الدين قد بلغ شأواً بعيداً عندما حاول أن يجد لصلاح الدين أصابع في وفاة أخيه الأكبر شمس الدين توران شاه (١٠١).

وفي حقيقة الأمر أن مواقف (اهرنكروتز) هذه لا تعدو أن تكون تخمينات لا أساس يدعمها من الحقيقة التاريخية. وكفي القول بأن من استعرض كتاب (اهرنكروتز) من المستشرقين قد أكدوا عجزه عن تقديم الصورة الصحيحة عن صلاح الدين، وبقاء الحاجة قائمة إلى سيرة جديدة مقنعة عن هذا البطل والحاكم المسلم (١٠٢). ويجب أن نشير ثانية، إلى أنه على الرغم من أن كتاب (اهرنكروتز) قد كتب بالانكليزية فإنه ليس بريطانياً.

سيرة مالكولم كامبيرون ليونز وديفيد ب. جاكسون.

وجاءت آخر الاسهامات البريطانية في موضوع سيرة صلاح الدين عام ١٩٨٢ على أيدي أكاديميين بريطانيين هما مالكولم ك. ليونز وديفيد ب. جاكسون. فاما (ليونز) فيعمل أستاذاً للتاريخ والأدب العربي في جامعة كمبردج، وهو خليفة المستشرق الشهير (اربري) في كرسي الدراسات العربية فيه (١٠٣). وأما (جاكسون) فهو تلميذ ليونز وهو أستاذ الدراسات العربية في جامعة سانت اندروز بأسكتلندة (١٠٤).

وهذه الدراسة هي أهم وأوثق وأشمل الكتب التي عالجت سيرة صلاح الدين بالانكليزية حتى الآن. وقد بذل المؤلفان جهداً كبيراً للاحاطة بجوانب دراستهم بصورة واسعة ودقيقة مما جعلها فعلاً انتقالاً هاماً في معالجة سيرة هذه الشخصية في العالم الناطق بالانكليزية (١٠٥).

وقد أراد مؤلفا هذه السيرة أن تكون دراستهما تماماً السيرة الموعودة التي طالما أكد المستشرقون الحاجة إلى وجودها، ولتحقيق هذا الهدف حاولا اتخاذ خط وسط بين اتجاهي (كب) و(اهرنكروتز) في تفسير سيرة صلاح الدين (١٠٦).

ويمكن إجمال مواقفهما من سيرة صلاح الدين كالآتي:

ليونز وجاكسون ومصادر سيرة صلاح الدين.

أ. لم يابه كاتبها هذه السيرة الجديدة كثيراً بموقف (اهرنكروتز) من المصادر الأولية العربية، حيث أعادها من جديد التأكيد على أهمية كتابات ابن شداد وعماد الدين كمصادر أساسية لبناء أي سيرة عن صلاح الدين الأيوبي، وبالفعل احتل كتاب (النوادر) مكاناً هاماً بين مصادرهما.

ب. من الإضافات الهامة، التي أشاد بها المستشرقون، في هذه السيرة، هو الاعتماد على مصادر جديدة، لم يسبق لكتاب سيرة صلاح الدين من المستشرقين الاعتماد عليها وهذه المصادر هي:

مخطوطات مراسلات صلاح الدين التي أنشأها القاضي الفاضل (١٠٧) وهي مخطوطات توزعت في العديد من المكتبات العالمية، جمعها المؤلفان، وحاولا أن يجعلها منها حشوة مهمة لبنائهما لسيرة صلاح الدين، وقد قدمت هذه المراسلات أحياناً مادة أولية هامة تمثل إضافات جديدة لمعارفنا عن سيرة صلاح الدين (١٠٨).

لكن ما يؤخذ على استخدام ليونز-جاكسون لهذه المراسلات هو تحمسهما المفرط لها، مما جعلهما يقحمانيها أحياناً دون ضرورة في كثير من الروايات (١٠٩)، من جانب آخر نجدهما يتعاملان مع الرسائل باعتبارها (إعلاماً) (١١٠) على العكس من (كب) الذي عدّ ما ورد في هذه الرسائل باعتباره حقيقة ما حمّله صلاح الدين من نوايا وغايات. ويحاول ليونز وجاكسون في مناسبات كثيرة أن يضعوا صلاح الدين في صورة المتجنّي أو المرائي أو المتبجح باقتطافهم لنصوص معينة من رسائل وجهت إلى أناس مختلفين وفي مراحل زمنية وظرفية مختلفة، وإجراء المقارنات بينها (١١١).

والمصدر الجديد الآخر الذي جاء في هذه السيرة هو كتاب (سنا البرق الشامي) وهو المختصر الذي وضعه البندري للأصل المفقود، وقد اعتمد المؤلفان على أطروحة الدكتوراه التي أنجزتها فتحية النبراوي كتحقيق للكتاب بإشراف (ليونز) نفسه في جامعة كمبردج. وقد قدم هذا الكتاب بعض الإضافات إلى معارفنا السابقة عن صلاح الدين وسيرته (١١٢). وشكل كتاب (السنا) المصدر الأساسي في بناء ليونز وجاكسون لسيرتهما، فقد بنيا هيكل روايتهما عليه، في حين وضعوا داخل هذا الهيكل مادة المصادر الأخرى إلى جانب (السنا).

ج- حاول المؤلفان أن ينفذا من خلال نقد (كب) الدقيق للمصادر الأولية في محاولة لتعديل مفاهيمه قليلاً تجاهها. فرأيا بأنه قد وثق أكثر مما ينبغي بفكرة حيادية عماد الدين الأصفهاني في عرضه لأحداث سيرة صلاح الدين (١١٣). وحددا بعض الروايات التي ظهر فيها عماد الدين كمن يحاول أن يضفي على صلاح الدين مظهراً براقاً (١١٤). أو يتجاوز بعض الأحداث التي كانت صورته فيها غير مقبولة (١١٥). وفي الوقت نفسه أراد ليونز وجاكسون أن يعيدوا بعض الأهمية لابن الأثير، وسعياً للتخفيف من مواقف (كب) الحادة في نقده لرواياته، بل عمداً إلى تبني العديد من روايات ابن الأثير على الرغم من انتقادات (كب) لها (١١٦). حتى عندما تكون الرواية بالغة القسوة على صلاح الدين كما هو الحال عند اتهامه بـدس السم لناصر الدين بن شيركوه، فلإننا

نجدهما يوردان هذه الرواية، بجانب رواية عماد الدين المعارضة لها، دون أن يرجحا أيًا من الروایتين (١١٧) إلا أن هذه المحاولات لم توفق تماماً في تحقيق هدفهما إذا بقي نقد (كب) الدقيق والمنهجي أقوى وأكثر تماسكاً من كل المحاولات لدحضه.

د. قدمت هذه السيرة أوسع عرض بتفصيله ودقته لأحداث سيرة صلاح الدين في الاستشراق الانكليزي، بجانب التوثيق الدقيق للروايات المتعلقة بالسيرة. وقد وظف المستشرقان ههنا عنصر المشاهدة الشخصية حيث زارا الأراضي التي دارت فيها أحداث السيرة في مصر وفلسطين وتوثقا منها لتدعيم هذه الأحداث أو تفسيرها أو نقدها.

هـ. اتبع المؤلفان منهجاً جديداً في تناولهما لأحداث الحملة الصليبية الثالثة، عن طريق الجمع بين المنهج الاستشراقي التقليدي الذي لا يلقي إلا بقليل عناية للأحداث على الجانب الصليبي، ويستند إلى المراجع الحديثة في تناولها، ومنهج المؤرخين المتخصصين بالحروب الصليبية، وهو المنهج الذي يلقي بثقله على معالجة الأوضاع الخاصة بالصليبيين، ويعتمد فيها على المصادر اللاتينية. وقد وظف المستشرقان إجادتهما للغة اللاتينية والعربية، فقدمتا دراسة متوازنة رجعا فيها إلى المصادر الأساسية لكلا الجانبين.

إلا أنه مما يؤخذ على هذه الدراسة إفراط كاتبها في استخدام المنهج النقدي للروايات التاريخية، بحيث تحولت هذه السيرة، في أحيان كثيرة إلى استعراض للروايات التاريخية ولتقدها أكثر منها دراسة لسيرة شخصية من الشخصيات.

الخلاصة :

لقد ظهر لنا بأن صلاح الدين كان أبرز الشخصيات الإسلامية التي اهتم بها الاستشراق الناطق بالانكليزية، وأمكنا أن نحدد أربع انتقالات أساسية مرت بها دراسة سيرة هذه الشخصية الشهيرة، استهلها لين بول باعطائه لصلاح الدين صفات خلقية إيجابية عالية، دعمها كب بعده بتوثيق دقيق للمصادر لكن السيرة الثالثة قد جاءت برؤية انشقاقية عارضت الموروث الانكليزي التقليدي. ثم جاءت السيرة الرابعة لتوازن بين الرؤيتين السابقتين وإن لم تخل ذاتها من الأخطاء والهفوات التي نوهنا إلى بعضها في البحث.

الهوامش

- (١) ستيفن رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، الباز العريني، (بيروت، دار الثقافة، د ت)، ج ٣ ص ٢.
- (2) A. S. Atiya. The Crusade: Commerce and Culture. (Bloomington Indiana University Press: 1962) p. 80.
- (٣) نقلاً عن S. Lane-Poole. Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, Heros of the Nations: 1898) pp. 232, 233.
- (4) N. Daniel, The Arabs and Medieval Europe (Beruit, Libraire du Liban: 1975) pp. 182-183.
- (٥) راجت هذه الرواية كثيراً وتبناها عدد غير قليل من المؤرخين منهم لين بول Lane - Poole. Saladin, p. 389.
- (6) J.H. Round. Saladin Iith. EHR. Vol. 31. 1916. PP. 447-448.
- (٧) عن هذه الملحمة انظر
- A.ward, The Cambridge History of English Literature. (Cambridge, Cambridge University Press, 1967) Vol. 1. p. 307.
- (8) D.AL- Jouburi. The Medieval Idea of the Saracens as Illustrated in English Litrature (Unpublished Ph. D. Thesis. University of Leicester. 1972) p. 146.
- (9) Ibid.. p. 164.
- (10) Lane-Poole, Saladin. p. 378.
- (11) Al-Jouburi, The Medieval, pp. 156-157.
- (12) Lane- poole, Saladin, 380.

(١٣) يعتمد كيبون على الترجمة اللاتينية التي قام بها المستشرق البرت شولتنس لهذا الكتاب، ونشرها في ليدن عام ١٧٣٢. وتوجد نسخة ثمينة من هذه الترجمة في المكتبة المركزية بجامعة الموصل وعنوانها

Vita et Res Gesta Sultant Al-Malik al-Nasiri Saladin.

(١٤) نقلاً عن الجبوري، ضياء، 'صلاح الدين والأدباء الانكليز'، مجلة آفاق عربية ١٩٧٦، ع ٣، ص ١٤٦.

(١٥) نفسه، ص ١٤٦.

(١٦) ولتر سكوت، الطلسم، ترجمة محمود محمود محمد (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر: ١٩٣٨) ص ١٠٦.

(١٧) نفسه، ص ١٢٥.

(١٨) سكوت، صلاح الدين، ص ٣٧٣.

(١٩) الجبوري، صلاح الدين، ص ١٤٦.

(٢٠) سكوت، صلاح الدين، ص ٣٧٢.

(٢١) نفسه، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٢٢) الجبوري، صلاح الدين، ص ١٤٦.

(٢٣) عنوان كتابه صلاح الدين وسقوط مملكة القدس ١١٥٩-١١٩٣.

Saldin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem 1159-1193.

(24) S.Lane-Poole. E. W.Lane D. N. B. Vol. 1X p. 512-513.

(25) H.Gibb, S. E. Lane-Poole D. N. B. 1931-1940, 717-718.

(٢٦) عن مؤلفات هذه انظر Ibid. p. 718.

(27) Ibid. p. 718.

(28) Lane-Poole. Saldin p. X111.

(29) Lane-Poole, "E. W. Lane". pp. 513-514.

(30) Ibid. pp. 514-515.

(٣١) من مؤلفاته التي تناولت مصر .

(سيرة القاهرة)، (لمحات من القاهرة)، (تاريخ مصر في العصور الوسطى) . . وغيرها .

(32) Gibb, "S. E. Lane-Poole". p. 718.

(٣٣) انظر التقرير الذي أعده لين بول عن عمل هذه اللجنة، والذي كلفه بكتابته اللورد كرومر، وألحقه بكتابته (The Story of Cairo).

(34) S. Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London. Frank Cass 7 Co. Ltd.: 1968.

(35) Lane-Poole, Saladin, pp. 65-130.

(٣٦) ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ، بيروت، صادر: ١٩٦٦ ج ١١، ص ٣٣٣-٣٤٤. Lane-Poole, Saladin, p. 99.

(37) Ibid, pp. 123-124.

(٣٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٠٠-٤٠٥.

(39) Lane-Poole, pp. 121-122.

(40) Lane-Poole.. pp. 74-79.

(٤١) انظر على وجه التحديد فصله المعنون صلاح الدين في القاهرة. Ibid. pp. 111-119.

(٤٢) قارن بين ذلك وكتابه

Lane-Poole, A history of Egypt, pp.194-196.

Lane-Poole, Story of Cairo, pp. 169-174.

(٤٣) اعترف لين بول بذلك في مقدمة كتابه عن سيرة القاهرة. Ibid.. pp. X1-X11.

(44) Lane-Poole, Saladin, pp. 131-197.

(٤٥) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٠٥-٤٠٧.

(46) Lane-Poole, Saladin, p. 134.

(٤٧) ابن شداد، النوادر، ص ٥٠-٥١.

ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٤٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٥١٧-٥١٨.

(49) Lane-Poole, Saladin. p. 194.

(50) Lane-Poole, Saladin. p. 141.

(٥١) أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (بيروت، دار الجيل، د ت) ج ١، ص ٢٤٦.

(٥٢) نفسه، ص ٢٥٤.

(٥٣) احتلت هذه المرحلة نحو ١٦٠ صفحة من الصفحات المخصصة لسيرة صلاح الدين في كتاب
لين بول البالغة ٣١٠ صفحة.

(54) Lane-Poole, p. 197.

(٥٥) ناصر عبدالرزاق ملا جاسم، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشرافية الانكليزية
والامريكية (أطروحة ماجستير غير منشورة) جامعة الموصل / ١٩٩٢، ص ٢٦٠.

(56) Lane-Poole, p. 326-336.

(٥٧) وقد لاحظ لين بول هذه المسألة وأكد على التباين بين قيمة المادة التاريخية وحجمها قبل التحاق
ابن شداد لصلاح الدين وبعده.

(٥٨) على سبيل المثال في حديثه عن حصار عكا. Ibid.. pp. 378-384.

(59) Ibid .. P.X111

(60) Ibid.. p. 338.

(٦١) ابن شداد، النوادر، ص ١٨٣-١٨٤. Lane-Poole. p. 314-322.

(62) Lane-Poole. Saladin. pp. 368-378.

(٦٣) عن حياة هاملتون كب انظر :

A. Lambton, "Sir Hamilton Alexander Roskeen Gibb: Obituary" BSOAS, 1971 Vol. 35.

(64) H. A. R. Gibb, "The Arabic Sources for the Life of Saladin". Speculum, 1950. Vol. 25.

(65) The life of Saladin From the Works of Ima'd-ad-din and Bah'a ad-din (Oxford, Clarendon: 1973).

(٦٦) يعد سكوت أحد الشخصيات ذات التأثير الكبير في نفوس طلبة هذه المدرسة ونستطيع أن نلاحظ ذلك من دخول القصص والروايات التي كتبها سكوت في مناهج الدراسة فيها، ومن التمثال الشاخص له في مقدمة هذه المدرسة.

(67) A.Hourain, Europe and the Middle East (London, St Antony/Macmillan Series: 1980) p. 133.

(68) Hourani, Europe, p. 206.W. Polk, Sir Hamilton Gibb between History and OrientalismI. JMES, 1975, Vol.. 6. p. 134.

(٦٩) جب، هاملتون، صلاح الدين الأيوبي: دراسات في التاريخ الاسلامي ترجمة وتحرير يوسف ايش (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣) ص٦٩-٧٠.

(٧٠) نفسه، ص٧٢، ١٠٥.

(٧١) نفسه، ص٧٥-٩٢.

(72) Gibb. The life. p. 1.

(٧٣) انظر على سبيل المثال اطروحة الدكتوراه التي قدمتها كارول هلين براند التي طبقت منهج كب على كتاب ابن الأزرقي الفارقي.

(74) C.H. illenbrand. The History of the Jazi, 1100-1150 Contribution of Ibn AL-Azraq AL-Farqi(Edinburgh,1979).

F. Gabrieli. Arabic Historiography of the Crusade, in B. Lewis (ed:) Historians of the Middle East (London, soas, 1962), p. 106.

(٧٥) نشر (كب) هذا البحث عام ١٩٥٢ .

(٧٦) جب، صلاح الدين، ص ١٩٠-١٩١ .

(٧٧) نفسه ص ١٩٨-١٩٩ .

(٧٨) نفسه، ص ١٩٢-١٩٣ .

(٧٩) نفسه، ص ١٩٢-١٩٣ .

(80) J. Haiek. Arab-American Almanac (California, The News Circle, (1989), p.287.

(٨١) ملا جاسم، صلاح الدين... / ص ن.

(82) Scanlon, Review. p. 277.

(83) Ehrenkreutz, Saladin, p. 3.

(84) ibid. p.3.

(85) ibid. p. 277.

(86) lane-Poole, Saladin. p. 3.

(87) khan,review p.59. ; Richards "The earely" p. 278. ; Scanlon, "Review". p. 278.

(88) khan, "Review" p. 62.

(٨٩) أهمل (اهرنكروتز) القسم الأكبر من رواية ابن شداد وعماد الدين عن جهاد صلاح الدين منذ معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، والتي لا يمكن أن تستقيم أية معالجة لجهاد صلاح الدين دون الاعتماد عليها. وفي مقابل ذلك اعتمد على نصوص محددة أجرى عليها عدداً من التعديلات منها:

١- رواية ابن شداد حول الصلح الذي عقده صلاح الدين مع أمير انطاكييا بعد حملة عام ١١٨٨/٥٨٤م على شمال الشام فهو يتخذ من هذه الرواية دليلاً على ضعف ميل صلاح الدين نحو الجهاد لكن اهرنكروتز يسقط هذه الرواية من سياقها التاريخي والنصي، فهو يهمل أولاً الحديث عن الحملة الظافرة والقاسية التي خاضتها قواته وحررت فيها أغلب مدن وقلاع إمارتي طرابلس وانطاكييا. وإن الصلح قد وقع مع نهاية موسم الحملات وقدم الشتاء. كذلك يهمل مسألة الحاح قوات حلفاء صلاح الدين عليه لعقد الصلح، وكذلك لا يتحدث شيئاً عن شروط الصلح التي كانت بالتأكيد لصالح المسلمين وكلها ذكرها ابن شداد. Ehrenkreutz, p. 213.

(90) Scanlon, "Review" p. 278.

(٩١) يتعمد (اهرنكروتز) تحريف معنى عبارة خاطب بها القادة صلاح الدين عندما طلب منهم القيام بهجوم شامل في المراحل الأخيرة من حصار عكا عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، فهو يعطي معنى مغايراً لكلمة (يخاطر) إذ يترجمها بكلمة ruining التي تعني يخرب أو يدمر، في حين إن الترجمة الأكثر دقة للكلمة هي (risking). ابن شداد، النوادر، ص ١٦٨. Ehrenkreutz, Saladin. p. 215.

(92) Khan, Review.p. 61.

(93) Ehrenkreutz, Saladin. p. 25.

(94) ibid.. p. 31.

(95) Richards, "The early" p. 143-145.

(96) Ehrenkreutz, Saladin, p. 69.

(97) ibid. p. 238.

(98) Ehrenkreutz, Saladin, p.202.

(٩٩) ابن شداد ، النوادر ، ص ٧٨.

(100) Ehrenkreutz, Saladin, p. 92.

(101) ibid.. p. 165.

(102) Runciman, "Review" p. 70.

(١٠٣) كامل مصطفى الشعبي، 'استاذنا العلامة ابري'، مجلة الاستشراقي، ١٩٩٠، ٤٤، ص ١٩.

(١٠٤) ملا جاسم، صلاح الدين، ص ٣.

(105) P.holt, "Saladin and this Admirler" BSOAS 1983, Vol.46. p.23.

(١٠٦) انظر التعليق المنشور على غلاف كتاب ليونز وجاكسون.

(107) Holt, Saladin. p.238.

(١٠٨) من بين الاضافات كما يذكر المؤلفان أنها تركز على أفعال صلاح الدين وتفسيراتها، وفي الهيكل الذي أراد صلاح الدين أن يوظف فيه هذه الأفعال Lyons vii

(١٠٩) ملا جاسم، صلاح الدين، ص ٣٠.

(١١٠) نفسه، ص ٣١.

(١١١) نفسه، ص ٣١.

(112) Holt, Saladin. p. 237.

(113) Lyons, Saladin, p. 385.

(114) ibid. p. 120.

(115) ibid. p. 228.

(١١٦) من الأمثلة على ذلك بعثه الاهتمام بتفسيرات ابن الأثير عن أسباب هزيمة الزنكيين في معركتي قرون حماة وتل السلطان.

(117) ibid. p. 238.